أحاديث إصلاح القلوب

(٤٩)

الأمور المعينة على الصبر على أذى الخلق

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَاسًا فِي الْقِسْمَةِ؛ فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ وَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا وَمَا أُرِيدَ فِيهَا وَجْهُ اللهِ. قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ -قَالَ- فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ، قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كَالصِّرْفِ، ثُمَّ قَالَ: «**فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ**». قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»(١). متَّفق عليه.

وفي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا

(١) رواه البخاريُّ (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢).

قَالُوا فَبَرَّأَهَا اللهُ ، وفيه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ**». قُلْتُ: إِنِّي وَاللهِ لَا أَجِدُ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]، وَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [النُّور:١١] الْعَشْرَ الآيَاتِ(١). متَّفق عليه.

هذا نوع من أنواع الصَّبر ومجال من مجالاته ألا وهو: «الصَّبر على أذى الخلق»، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]، والآيات كثيرة في هذا المعنى.

ومن المعلوم أنَّ الإنسان في هذه الحياة لا يسْلم من أذى الخلق؛ لأنَّ النَّاس أجناس ومتفاوتون في أخلاقهم ومعادنهم وطبائعهم وتعاملاتهم، فينبغي للمسلم أن يكون متحليًّا بالصَّبر ليعظم بذلك أجره عند الله، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى**

(١) رواه البخاريُّ (٤٤١٣)، ومسلم (٢٧٧٠).

أَذَاهُمْ»[(١)]. رواه ابن ماجه.

وقد ذكر أهل العلم أمورًا تعين المرء على الصَّبر على أذى الخلق، ولشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفصيلات نافعة تعين العبد على ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ويُعِينُ العبدَ على هذا الصَّبر عدَّةُ أشياءَ:**

أحدها: أن يشهدَ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خالقُ أفعالِ العباد؛ حركاتِهم وسَكَناتِهم وإراداتِهم، فما شاءَ الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يتحرَّك في العالم العُلْوِيِّ والسُّفليِّ ذرَّة إلَّا بإذنه ومشيئتِه، فالعباد آلة، فانظر إلى الَّذِي سَلَّطَهم عليك ولا تَنظُرْ إلى فِعلِهم بكَ، تَسْتَرِحْ من الهمِّ والغَمِّ.

الثَّاني: أن يَشْهَد ذُنُوبَه وأنَّ الله إنَّما سلَّطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشُّورى:٣٠]. فإذا شهد العبدُ أنَّ جميع ما يناله منْ المكروه فسببُه ذنوبُه؛ اشتغلَ بالتَّوبة والاستغفار من الذُّنوب الَّتِي سلَّطهم عليه بسببها عن ذَمِّهم ولَومِهم والوقيعةِ فيهم. وإذا رأيتَ العبدَ يقع في الناس إذا آذَوْه ولا يَرجع إلى نفسِه باللَّوم والاستغفار فاعلمْ أن مصيبتَه مصيبةٌ حقيقية، وإذا تاب واستغفر وقال: «هذا بذنوبي» صارتْ في حقِّهِ نعمةً. قال عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كلمةً من

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٣٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

جواهرِ الكلام: «لا يَرجُوَنَّ عبدٌ إلَّا ربَّه، ولا يَخافَنَّ عبدٌ إلَّا ذنبَه»[١]. ورُوِي عنه وعن غيرِه: «ما نزلَ بلاءٌ إلَّا بذنبٍ، ولا رُفِع إلَّا بتوبة»[٢].

الثَّالث: أن يشهد العبدُ حُسْنَ الثَّواب الَّذِي وعده الله لمَن عَفَا وصَبَر، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشُّورى:٤٠]. ولمَّا كان النَّاسُ عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالمٌ يأخذ فوق حقِّه، ومقتصدٌ يأخذ بقدرِ حقِّه، ومحسنٌ يعفو ويترك حقَّه، ذَكَر الأقسامَ الثَّلاثة في هذه الآية، فأوَّلها للمقتصدين، ووسطها للسَّابقين، وآخرها للظَّالمين. ويشهد نداءَ المنادي يوم القيامة: «أَلَا لِيَقُمْ مَنْ وَجَبَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ»[٣]، فلا يَقُمْ إلَّا مَن عفا وأصلح، وإذا شهِدَ مع ذلك فوتَ الأجر بالانتقام والاستيفاء سَهُلَ عليه الصَّبر والعفو.

الرَّابع: أن يشهد أنَّه إذا عَفا وأحسنَ أورثَه ذلك من سلامةِ القلب لإخوانه ونَقائِه من الغِشِّ والغِلِّ وطلبِ الانتقام وإرادةِ الشَّرِّ وحصَلَ له من حلاوة العفو ما يزيد لذَّتَه ومنفعتَه عاجلًا وآجلًا على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافًا مضاعفةً، ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٧٥).

(٢) قاله عمر رضي الله عنه كما في عيون الأخبار للدِّينوريِّ (٢/ ٣٠٣).

(٣) ورد مرسلًا عن الحسن البصريُّ، كما في السِّياسة الشَّرعيَّة لابن تيميَّة (ص١٠٧).

[آل عمران:١٣٤]، فيصير محبوبًا لله، ويصير حالُه حالَ من أُخِذَ منه درهمٌ فعُوِّضَ عليه ألوفًا من الدَّنانير، فحينئذٍ يَفرحُ بما منَّ الله عليه أعظمَ فرحًا يكون.

الخامس: أن يعلم أنَّه ما انتقم أحدٌ قَطُّ لنفسه إلَّا أورثَه ذلك ذُلًّا يجده في نفسه، فإذا عَفى أعزَّه الله تعالى، وهذا ممَّا أخبر به الصَّادق المصدوق ﷺ حيث يقول: «**مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**»(١). فالعِزُّ الحاصل له بالعفو أحبُّ إليه وأنفع له من العِزِّ الحاصل له بالانتقام، فإنَّ هذا عِزٌّ في الظَّاهر وهو يُورِث في الباطن ذُلًّا، والعفوُ ذُلٌّ في الباطن وهو يورث العزَّ باطنًا وظاهرًا.

السَّادس: وهي من أعظم الفوائد: أن يَشهدَ أنَّ الجزاء من جنس العمل، وأنَّه نفسه ظالمٌ مذنب، وأنَّ مَن عَفا عن النَّاس عَفَا الله عنه، ومَن غَفَر لهم غَفَر الله له. فإذا شَهِدَ أنَّ عفوه عنهم وصفحَه وإحسانَه مع إساءتِهم إليه سببٌ لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله فيعفو عنه ويصفح ويُحسِن إليه على ذنوبه، ويَسْهُل عليه عفوُه وصبرُه، ويكفي العاقلَ هذه الفائدةُ.

السَّابع: أن يَعلم أنَّه إذا اشتغلتْ نفسُه بالانتقام وطلب المقابلة ضاعَ عليه زمانُه وتفرَّقَ عليه قلبُه، وفاتَه من مصالحِه ما لا يُمكِن استدراكُهُ، ولعلَّ هذا أعظم عليه من المصيبة الَّتِي نالتْه من جهتهم، فإذا عفا وصَفحَ فَرَّغَ قلبَه

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

وجسمَه لمصالحه الَّتِي هي أهمُّ عنده من الانتقام.

الثَّامن: أنَّ انتقامَه واستيفاءَه وانتصارَه لنفسِه انتقام لها، فإنَّ رسول الله ﷺ ما انتقمَ لنفسِه قَطُّ، فإذا كان هذا خيرَ خلق الله وأكرمَهم على الله لم يَنتقِمْ لنفسِه، مع أنَّ أَذَاه أَذَى الله، ويتعلَّقُ به حقوق الدِّين، ونفسه أشرف الأنفُس وأزكاها وأبرُّها وأبعدُها من كلِّ خُلُقٍ مذمومٍ، وأحقُّها بكلِّ خُلُقٍ جميلٍ، ومع هذا فلم يكن يَنتقِم لها، فكيف يَنتقِمُ أحدنا لنفسِه الَّتِي هو أعلم بها وبما فيها من الشُّرور والعيوب، بل الرَّجل العارف لا تُساوِي نفسُه عنده أن ينتقم لها، ولا قدرَ لها عنده يُوجِبُ عليه انتصارَه لها.

التَّاسع: إن أُوذِيَ على ما فعلَه لله أو على ما أُمِرَ به من طاعتِه ونُهِي عنه من معصيتِه وجبَ عليه الصَّبْرُ ولم يكن له الانتقام، فإنَّه قد أوذِي في الله فأجرُه على الله. ولهذا لمَّا كان المجاهدون في سبيل الله ذهبتْ دماؤهم وأموالُهم في الله لم تكن مضمونةً، فإنَّ الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، فالثَّمن على الله لا على الخلق، فمَن طلبَ الثَّمنَ منهم لم يكن له على الله ثمنٌ، فإنَّه مَن كان في الله تَلَفُه كان على الله خَلَفُه، وإن كان قد أُوذِي على مصيبة فليَرجعْ باللَّومِ على نفسِه ويكون في لَومِه لها شُغْلٌ عن لَومِه لمَن آذاه، وإن كان قد أُوذِي على حظٍّ فليُوطِّن نفسَه على الصَّبر، فإنَّ نيلَ الحُظوظِ دونَه أمرٌ أَمَرُّ من الصَّبر، فمَن لم يصبر على حرِّ الهَوَاجر والأمطارِ والثُّلوج

ومشقَّةِ الأسفارِ ولصوصِ الطَّريقِ، وإلَّا فلا حاجةَ له في المتاجرة. وهذا أمر معلوم عند النَّاس أنَّ مَن صدَقَ في طلب شيء من الأشياء بُذِّل من الصَّبر في تحصيله بقدر صدقِه في طلبِه.

العاشر: أن يَشهدَ معيَّةَ الله معه إذا صَبَر، ومحبَّةَ الله له إذا صَبَر، ورِضاه. ومَن كان الله معه دَفَع عنه أنواعَ الأذى والمضرَّات ما لا يَدفعُه عنه أحدٌ من خلقِه، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦].

الحادي عشر: أن يَشهد أنَّ الصَّبْرَ نِصفُ الإيمان، فلا يبذل من إيمانه جَزاءً في نُصرةِ نفسِه، فإذا صَبَر فقد أَحرزَ إيمانَه وصانَه من النَّقص، والله يدفع عن الَّذِين آمنوا.

الثَّاني عشر: أن يشهد أنَّ صبرَه حكمٌ منه على نفسِه وقَهرٌ لها وغَلَبةٌ لها، فمتَى كانتِ النَّفسُ مقهورةً معَه مغلوبةً لم تطمعْ في استرقاقِه وأَسْرِه وإلقائِه في المهالك، ومتى كان مطيعًا لها سامعًا منها مقهورًا معها لم تزَلْ به حتَّى تُهلِكَه، أو تتداركَه رحمةٌ من ربِّه. فلو لم يكن في الصَّبر إلَّا قَهرُه لنفسِه ولشيطانِه؛ فحينئذٍ يَظهرُ سلطانُ القلبِ وتَثبُتُ جنودُه ويَفرَحُ ويَقوَى ويَطْرُد العدوَّ عنه.

الثَّالث عشر: أن يعلم أنَّه إن صَبَرَ فاللهُ ناصرُه ولا بُدَّ، فاللهُ وكيلُ من

صَبر، وأحالَ ظالمَه على الله، ومَن انتصَر لنفسِه وكلَهُ اللهُ إلى نفسِه فكان هو النَّاصر لها. فأينَ مَن ناصرُه اللهُ خيرُ النَّاصرين إلى مَن ناصِرُه نفسُه أعجز النَّاصرين وأضعفُه؟

الرَّابع عشر: أنَّ صَبْرَه على مَن آذاه واحتمالَه له يُوجِبُ رجوعَ خَصْمِه عن ظُلمِه ونَدامتَه واعتذارَه ولومَ النَّاسِ له، فيعودُ بعد إيذائِه له مستحييًا منه نادمًا على ما فعلَه، بل يَصيرُ مواليًا له. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فُصِّلت:٣٤-٣٥].

الخامس عشر: ربَّمَا كان انتقامُه ومقابلتُه سببًا لزيادة شرِّ خصمِه وقوَّةِ نفسِه وفكرته في أنواع الأذى الَّتِي يُوصِلُها إليه كما هو المشاهَد. فإذا صبر وعفا أَمِنَ من هذا الضَّرر، والعاقلُ لا يختارُ أعظمَ الضَّررين بدَفْعِ أدناهما. وكم قد جلبَ الانتقامُ والمقابلةُ من شرٍّ عَجَزَ صاحبُه عن دفعِه، وكم قد ذهبتْ نفوس ورِئاسَات وأموال لَو عفا المظلومُ لبقيتْ عليه.

السَّادس عشر: أنَّ مَن اعتادَ الانتقام ولم يَصبِرْ لا بُدَّ أن يقعَ في الظُّلم، فإنَّ النَّفس لا تَقتصِرُ على قدرِ العَدْل الواجب لها لا علمًا ولا إرادةً، ورُبَّما عجزت عن الاقتصار على قدرِ الحقِّ، فإنَّ الغضبَ يَخرُجُ بصاحبه إلى حدٍّ لا يَعقِلُ ما يقول ويفعل، فبينما هو مظلوم يَنتظِرُ النَّصْرَ وَالعِزَّ إذ انقلبَ ظالمًا

يَنتظِرُ المقتَ والعقوبةَ.

السَّابع عشر: أنَّ هذه المَظْلَمةَ الَّتِي ظُلِمَها هي سبب إمَّا لتكفيرِ سيِّئتِه أو رَفْعِ درجتِه، فإذا انتقمَ ولم يَصبِرْ لم تكنْ مُكفِّرةً لسيِّئتِه ولا رافعةً لدرجتِه.

الثَّامن عشر: أنَّ عفوَه وصبرَه من أكبر الجُنْدِ له على خَصْمِه؛ فإنَّ مَن صَبَر وعفا كان صبرُه وعفوه مُوجِبًا لذُلِّ عدوِّه وخوفِه وخَشيتِه منه ومن النَّاس، فإنَّ النَّاس لا يسكتون عن خصمِه وإن سَكتَ هو، فإذا انتقمَ زالَ ذلك كلُّه. ولهذا تَجِدُ كثيرًا من النَّاس إذا شَتَم غيرَه أو آذاه يُحِبُّ أن يَستوفِيَ منه، فإذا قابله استراحَ وألقَى عنه ثِقلًا كان يجده.

التَّاسع عشر: أنَّه إذا عفا عن خصمِه استشعرتْ نفسُ خصمِه أنَّه فوقَه وأنَّه قد رَبِحَ عليه، فلا يزال يرى نفسَه دونَه، وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعفو.

العشرون: أنَّه إذا عفا وصَفَحَ كانت هذه حسنةً، فتُوَلِّدُ له حسنةً أخرى، وتلك الأخرى تُولِّدُ له أخرى، وهَلُمَّ جَرًّا، فلا تزال حسناتُه في مزيد، فإنَّ من ثواب الحسنةِ الحسنة، كما أنَّ من عقاب السَّيِّئةِ السَّيِّئة بعدها. وربَّما كان هذا سببًا لنجاتِه وسعادتِه الأبديَّة، فإذَا انتقم وانتصرَ زال ذلك»[1].

الحاصل أنَّ هذه أمور عظيمة تعين العبد على الصَّبر على أذى الخلق، إذا وُفِّق العبد لتأمُّلها بأناة وحسن تفهُّم لها حتَّى تتمكَّن من نفسه وتتعمَّق في

---

(١) قاعدة في الصبر لابن تيميَّة (ص٩٤ - ١٠٧).

قلبه، وَوُفِّق لاستحضارها في المقامات الَّتِي يحصل له فيها أذى من الخلق، ونسأل الله أن ينفعنا أجمعين وأن يصلح لنا شأننا كلَّه وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.